المقدّمة

بقلم الدكتور هادي الجطلاوي

عندما عرض عليّ الأستاذ مظهر الملّوحي أن أراجع تعريبا للإنجيل أنجزه بعض الباحثين مؤخّرا للنشر تملكّني – أنا المسلم المتعامل عادة مع القرآن – إحساس غريب امتزج فيه التخوّف من مسؤولية ثقيلة تلقي على كاهلي ما قد يتسرّب إلى النصّ من الأخطاء والهفوات في الأداء والعبارة ممّا ربّما يصرف القارئ عن النصّ الديني في الوقت الذي كان من المفروض- على خلاف ذلك- أن يرغّبه فيه ويقنعه بالانصراف إليه والتفاعل معه وانتابني تهيّب أعظم من تسرّب الخطإ مأتاه ما في منزلتي البشرية من حدّ وقصور يقع دون الوحي الإلاهي في بلاغته وسحره الذي لا يدركه اللّسان البشري فكيف لمن كانت هذه منزلته أن ينصّب نفسه مقيّما للكتاب المقدّس؟ وهذا تهيّب قد لا يفهمه القارئ المسيحي ولا يجد له مبرّرا وهو الذي تعوّد على قراءة الأناجيل يؤلّفها الحواريون أصحاب عيسى وأتباعه ممّن عايشه وأخذ عنه كلٌّ بطريقته وأسلوبه فتلتقي النصوص غالبا و تختلف أحيانا اختلافا لا يعدو أن يكون إثراء لتلك النصوص يكمّل به بعضها البعض دون أن يكون بالضرورة مصدرا للشقاق والفرقة بينها، وهو تهيّب يفهمه القارئ المسلم الذي تلقّى في تعاليم دينه أنّ القرآن معجز بلفظه ومعناه وأنّه وحي من الله على رسوله وتوقيف منه على المؤمنين ليس لهم أن يجتهدوا في لفظه بالزيادة ولا بالنقصان ولا بالتعديل والمراجعة.

ولقائل أن يقول ليس لهذا التهيّب من مبرّر ما دام الأمر متعلّقا بترجمة للنصّ المقدّس. والترجمة تعبير عن فهم شخصيّ للنصّ وتأويل له تحمله صياغة شخصية جديدة للنصّ في لغة غير لغته الأصلية بما تحتمله الترجمة ذاتها من خطر على حسن أداء المعنى في لفظه وأسلوبه ومعناه. ومثلما ترجم الانجيل فقد ترجم القرآن وغيره من النصوص المقدّسة فتعدّد القرآن بتعدّد مترجميه وهي تراجم متقاربة ساعية ما استطاعت إلى أداء المعنى بلفظ لا يمكن له أبدا أن يكون سميّ اللّفظ العربي ولا طمع له في أن يكون كذلك. وإنّما هو الأداء أوفى ما

يمكن وأصدق ما يمكن أن تحمله اللّغة المترجمة تبلّغ المعنى وتقصر عن تبليغ جمال أداء المعنى و سحره اللّغوي. بل حتّى مجرّد أداء المعنى كلِّ المعنى يبقى من المطامع والأوهام .

وهذا في حدّ ذاته مصدر عظيم من مصادر التهيّب من ركوب الترجمة عامّة فكيف بك إذا كان النصّ المترجم نصّا مقدّسا؟

ولعلّ الذي يهوّن من هذا التهيّب الذي ينتاب المترجم للنصّ الديني أيّاً كان ذلك النصّ هو أنّ النصّ المقدّس في أصل منشئه نصّ متعدّد تعدّدا مادّيا لغويّا مهما بدا ذلك التعدّد أو التنوّع تنوّعا جزئيّا. أمّا تعدّد "الأناجيل" بصيغة الجمع فأمر ظاهر لا يحتاج إلى تدليل فهذا إنجيل يوحنّا وهذا إنجيل متّى...وقارئ هذه الأناجيل لا يخفى عليه ما بينها من مواطن الائتلاف والاختلاف وهذه مسألة جديرة بالاهتمام في حاجة إلى أن يتجاوز الباحث فيها مجرّد الإحساس إلى النظر العميق في أسباب الائتلاف والاختلاف وتبعاته في إطار الدراسة المقارنة للنسخ المتعدّدة للأصل الواحد.

أمّا تعدّد القرآن فهو، وإن لم يكن ظاهرا ظهوره في الأناجيل، قائم في تعدّد القراءات بل في تعدّد المصاحف وقد ألّف أبو بكر السّجستاني (ت 316 هـ) كتابا في "المصاحف" بالجمع. ففي القرآن إقرار بنزوله على سبعة أحرف وفي السنّة النبويّة أحاديث مبيحة لتعدّد القراءات وفي التراث الإسلامي تشريع للقراءات المتعدّدة وضبط لشروطها ومواضعها وأعلامها وذلك رغم توحيد عثمان لنسخ القرآن المتعدّدة في مصحف عثماني واحد.

وتعدّد القراءات في النصوص الدينيّة أمر بديهيّ يستمدّ شرعيّته من الملابسات التاريخيّة الحافّة بنشوئه المتّصلة بتقبّله وتدوينه فالنصّ الدّيني كان دائما في منطلقه نصّا شفويّا، كان شفويا في نزوله وحْيا وشفويّا كذلك في تبليغه ونشره رسالةً ومن هنا كان نصّا متعدّدا بتعدّد ما يعتريه في تنقّله من تحريف وتغيير يكبر أو يصغر عن قصد أو عن غير قصد.

ينضاف إلى هذه الأسباب المادّية التاريخيّة انتساب النصّ الدّيني إلى جنس الكتابة الفنّية المكنّية والكناية قائمة في الانجيل وفي القرآن معا وإن بأسلوبين مختلفين فالمسيح في الإنجيل ما ينفكّ يضرب للناس الأمثال ويختبر فطنتهم في فكّ الألغاز واستخلاص العبر من قصص لا يراد منها ظاهرها بل يطلب منها تأويلها وما وراء أحداثها من كناية وهداية .أمّا

القرآن فإنّ قضيّة التأويل فيه أعقد إذ فيه ما في الإنجيل من اختلاف في تفسير السنّة النبويّة في أقوال الرسول وأفعاله على أنّها رموز تشريعيّة إن صدرت من محمّد رسولاً دعت إلى فعل ما فعله وترك ما تركه فكان مثل المسيح قدوة وإماما وفي القرآن ما ليس في الانجيل من صياغة قام النظم فيها على الإشارة والإيحاء والعبارة المتهيئّة لتعدّد الفهم والقراءة.

فتراوح تلقّي النصّ الديني بين فهمه على ظاهره وتوسيع دائرة فهمه على الإباحة والتخيير أو تضييق دائرة فهمه على التحذير والتحريم.

فكانت قابليّة النصّ الدّيني للتلقّي المتعدّد في لغته ومعناه بل كان حقّه في ذلك من الأسباب المهوّنة على المترجم يترجمه أو المفسّر يؤوّله وكان في سماحة الأستاذ مظهر الملّوحي وإيمانه بجدوى التعاون وانفتاح القراءة والمعرفة على آفاق في الدّين تتعدّى حدود الدّين الواحد إلى محاورة الآخر بحثا عن أسباب الألفة من خلال عناصر الفرقة، كان ذلك من العوامل الميسّرة أيضا لهذا التلاقي بين المسيحية دينا و العربية لغة.

ولقد أتاحت لنا فرصة النظر عن كثب في عربية الإنجيل أن ننتبه إلى مواضع شبه والتقاء بين عربية الانجيل وعربية القرآن في التعبير والتصوير تغرينا بالبحث في مستقبل قريب إن شاء الله عن خصوصيّة الأسلوب الدّيني وعن الروابط القائمة بين لغة الإنجيل ولغة القرآن في منشئها وأسباب انعقادها.

سوسة في 21 أوت 2007

الهادي الجطلاوي